البواعث الثقافية في كتابة الاساطير والخرافات عند الرحالة العرب والمسلمين المشارقة (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م)

أ.د.م / عقيل عبد الله ياسين/ جامعة واسط / كلية التربية
الباحث سلام ناصر والي/ المديرية العامة لتربية واسط

الملخص

يُعد الباعث الثقافي الركيزة الاساسية التي ينطلق منها الرحالة في بناء تصوراته العامة حول المكان الذي وطأة قدمه له، فهو يعكس ثقافته الذاتية في تدوين مشاهداته ونقل ما سمعه اثناء اسفاره عن تلك المناطق التي زارها، وربما يأخذ منه المشهد الاسطوري والخرافي الذي يصادفه عياناً او سماعاً، التفاتة واضحة، ووقفة جديه، وحيزاً كبيرا في الرصد، فتراه يطلق العنان لخياله في الوصف، ويوظف كل ما لديه من ثقافة ذاتية أكتسبها من بيئته لتقديم صورة مرغوبٌ فيها عند جمهورهِ . ومما سبق تكمن اهمية الموضوع لاسيما وانه لم يبحث في دراسة مستقلة تخوض في غمارها وتكشف ماهيته، لذا اقتضت طبيعته جعله في ثلاثة محاور تتقدمهم مقدمة وتليهم خاتمة، اذ عنون المحور الاول بثقافة الرحالة، تضمن انعكاس تلك الثقافة في وصف الرحالة للأساطير والخرافات، اما المحور الثاني عنون بالرحالة والأخر، وعقد لبحث صورة الأخر في نظر الرحالة، وما نقله عنه، والمحور الثالث اتخذ عنوان كتب الخرفات والعجائب والغرائب، تناول هذا المحور أثر تلك المؤلفات في لفت انتباه الرحالة على تضمين كتاباتهم بعض الاساطير والخرافات .

Abstract

The cultural motivator is the main foundation from which the traveler sets out to build his general perceptions about the place where he is the weight of his feet. He reflects his own culture in recording his observations. We hear what he heard during his travels from these cities, the region or the countries he visited. It is characterized by an eye or a hearing, a clear attitude, a great posture and a great deal of monitoring. Vtrah unleashes his imagination in description and employs all his own culture to acquire a desired image in his audience.This is why the nature of the subject was made in three axes, preceded by an introduction and delayed by the conclusion. The first axis is concerned with the culture of travelers. It included the reflection of this culture in describing the travelers of myths and myths. The third axis took the title of books of dementia and wonders and oddities, this topic dealt with the impact of these publications in drawing the attention of travelers to include in their writings some legends and myths.

المقدمة

يأتي الجانب الثقافي من الاهمية في تكوين شخصية الانسان، اذ يُعد صورة مرئية لذاته من خلال ما يعكسه من سلوكيات مختلفة يعبر بها عن مستوى تفكيره ،وما اكتسبه من مواقف ومعارف، وخبره اعطاه له المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه، وبالتالي فان القاعدة القيمية والدينية التي ينطلق منها الانسان، هي التي يمكن ان تحدد طبيعة تعامله في وصف الأخر، لذا استندت كتابات الرحالة العرب والمسلمين المشارقة كثيرا على الثقافة الذاتية في التعامل مع مشاهداتهم، وسماعهم، ومنقولاتهم اثناء اسفارهم، وقد كان الالتزام بطبيعة البيئة الثقافية التي انطلق منها الرحالة نحو المكان الذي لفت انتباهه واستغرابه في رحلته، اثراً في تفسير ما يجده غريباً من اساطير وخرافات، قد تكون طبيعية عند الشعوب التي وطأتها اقدام الرحالة لقناعتهم التامة بتلك الممارسات الاسطورية والخرافية التي قد يكونوا معتقدين بها او مرددين لها عبر تراثهم وماضيهم السحيق. لذا عُرفت الرحلة بأنها ذلك اللون من التأليف الذي يجمع بين الدافع الوجداني

العميق والتأمل الدقيق في رصد المشاهدات والظواهر بأناة ودقة[١] اذ تبين هذا المفهوم في سرعة تطور كتابة الرحلة في العصر الاسلامي يتبعه دوافع متعددة ساعدت في نضوج كتابة الرحلات، لعل من اهمها الدوافع الدينية المتمثلة بضرورة الرحلة في تأدية فريضة الحج وزيارة قبر الرسول (ﷺ)، فضلاً عن الدافع الاقتصادي المتمثل بالتبادلات التجارية مع الشعوب الاخرى، والدافع العلمي في ضرورة اكتساب العلم، والمعرفة من المراكز الحضارية والعلمية في العالم الاسلامي انذاك، اضف الى ذلك الباعث السياسي الذي اسند العديد من المهمات الرسمية والبعثات والسفارات للرحالة في سبيل تأدية ما يخدم المصالح العامة للدولة الاسلامية[٢] . وعليه كانت اغلب تلك الرحلات بمختلف عناوينها ودوافعها لاتخلو من بعض الاساطير والخرافات، اذ كان من اهم اسباب وجودها في كتابات الرحالة العرب والمسلمين المشارقة هو الباعث الثقافي الذي يمكن مناقشته من خلال الآتي:

اولاً : ثقافة الرحالة نظراً لاعتناق العرب دين الاسلام، والتأثر بثقافته الدينية، فقد اصبحوا اكثر استجابة الى نبذ كل ماهو غريب وخارق يجدونه عند الاخر، بل يقفون منه موقف السخرية احياناً[٣] لكن تلك الثقافة لم تمنع العرب والمسلمين من حفظ ما تصوروه عن ايامهم القديمة وما سطرته امجاد بعض قبائلهم، فحملوا ذلك على محمل الصدق واختلقوا له الروايات كي تكون مبالغاتهم اقرب الى الحقيقة[٤] .

زيادةً على ذلك اتجاه العباسيون السياسي نحو بلاد فارس وارتباطهم بتلك الثقافة التي تمتد جذورها الى بلاط الساسانيين وما قبلها[٥]، فضلاً عن اقتراح بعض الافكار الواقعية بالافكار الموجودة في التوراة بما يتعلق ببلاد العرب[٦] ولا يمكننا اغفال النشاط الملحوظ في حركة الترجمة ابان العصر العباسي للكتب الجغرافية اليونانية وغيرها الى العربية، اذ كان للمدرسة اليونانية اثراً في بناء العرب لمعلوماتهم الجغرافية بعد ان اضافوا لها ولغيرها ما املته عليهم اسفارهم ورحلاتهم المتعددة الى البلدان المختلفة[٧]، فقد كان اغلب جغرافي القرن الثالث الهجري/ القرن التاسع الميلادي، متأثرين الى حد كبير بالمعرفة الجغرافية اليونانية[٨].

ويرى مينورسكي ان هذا التأثر العربي لليونان قد اقتصر على ما مذكور في جداول الطول والعرض، بينما كانت المساحة الجغرافية العربية اكثر تنوعاً ومتانةً وعمقاً[٩] اذ كان الرحالة المسلمين دائما لايسلكون في رحلاتهم خطاً مستقيما موازياً لخط الاستواء كي يساعد في تحديد درجات الطول والعرض[١٠]، لكن مع ذلك فأن هذا الامر لا يفسد توجه الرحالة الى تناول عجائب الكون وتضمينه كتاباتهم الجغرافية[١١] لاسيما انهم قد انصهروا مع باقي الثقافات الاخرى لشعوب البلاد المفتوحة، اذ وصلت لهم بعض اخبار الاساطير والخرافات عن طريق الكتابات اليونانية والاراء الفارسية والهندية، زيادةً على ان الشعوب التي دخلت الاسلام حملت معها ما احتواه تراثها الثقافي من عجائب وغرائب[١٢]، فضلاً عن قدم الصلاة التجارية مع تلك البلدان المتمثلة ببلاد فارس والهند والصين[١٣] والتي ساعدت على امتزاج الثقافات والأفكار المتنوعة .

لذا نجد ان كتابات الرحالة العرب والمسلمين اختلفت باختلاف الاماكن والثقافات المتنوعة، نظراً لتنوع اماكن رحلته التي صادفها الغموض احياناً، فيسهم خيال الرحالة في وصف مخالف للواقع، او قد يتفاعل مع الغريب ويرفض المعتاد[١٤] وكل ذلك يعتمد على ثقافة الرحالة في كيفية سرد مشاهداته، او سماعه لبعض الاحداث، وقد يدفعه ذلك الى اطلاق العنان لخياله في وصف الاشياء؛ فيحاول ان يغير ويعدل، ويبتعد عن الحقيقة قدر الامكان مع الاحتفاظ بنسبة معينة من الواقع[١٥]، او ربما يحسن استخدام حسه الفطري المعرفي، ويحيط بما يرى في توظيف خبراته الجغرافية والاجتماعية، حريصاً على صياغة رؤيته وفق محصلة الاحاطة والتمعن، والتفكير في تدوين كتاباته الرحلية

والجغرافية[١٦] الا ان التضليل الذي وقع فيه بعض الرحالة في تشويه الحقيقة سواء كان عن قصد، او من غير قصد وحسن نيه، كان في الحالتين مثيراً وغريباً[١٧]، اذ اصبحت الاساطير والخرافات جزءاً من حصاد كتابات الرحلة لحساب اهداف ابتغاها الرحالة نفسه[١٨] فهو سجل رؤيته وانطباعاته في جميع انواع المعارف دون تكليف من احد[١٩]، وربما أملت عليه ذلك توجهاته الثقافية العامة على تسجيل ما يراه مناسباً للنقل لمجتمع ينتظر منه ذلك، ومثال ذلك ما دونه الرحالة ناصر خسرو (ت٤٨١ه/١٠٨٩م) في رحلته، اذ كان شغوفاً في تدوين الاساطير والخرافات لجمهوره في مسقط رأسه خراسان، وربما حاول بعض الاحيان ان يقارن بين ما سمعه من خرافات في موطنه الاصلي، وما شاهده في رحلته، فعلى سبيل المثال عند وصوله الى قرية تنيس في مصر ذكر **"ان علة تصيب النساء هناك كالصرع فيصحن مرتين او ثلاثاً ، ثم يعدن بعد ذلك الى صوابهن ، وكنت سمعت في خرسان عن جزيرة تموء فيها النساء كالقطط..."**[٢٠] .

ولعل الرحالة يجد في سرد تلك الخرافات اشباع لرغبة واذواق الجمهور، ويعكس ثقافة خاصة، فيها تمرد خجول على الحقيقة، فكل ذلك يأتي وفق قناعة ومستوى ذهنية الرحالة نفسه في تصديق كل مايرد الى اسماعه من حكايات شعبية، او روايات اسطورية وخرافية، لكنه بنفس الوقت يحاول فك رموزها، ونقلها للمتلقي بما يتلاءم مع موروثه الثقافي، كي يسهل على المتلقي هضمها، واختراق مادتها في موطنه الثقافي[٢١] .

بيد ان لكل رحالة اسلوبه ونظرته الخاصة في صياغة مشاهدته، وسماعه الذي صادفه في طريق الرحلة، مفسراً تلك الاساطير والخرافات المرئية والمسموعة بما يتلاءم وطريقة تفكيره، وحصيلته الثقافية التي اكتسبها من البلاد التي قدم منها بصورة عامة، **"فالرحالة قد تتوفر لديه معلومات قائمة على المشاهدة العينية او الروايات الشفوية او الاخبار المسندة، وقد تكون راجعة لمطالعاته، مما ينقضي الى انتاج نصوص يتداخل فيها الواقعي بما هو متخيل"**[٢٢] .

ويرى احد الباحثين ان ما نقله بعض الرحالة من اساطير الشعوب وخرافاتها راجع الى ضعف ملكة النقد والتحليل لديهم، وعدم تحكيم العقل في ذلك مما جعلها تنفذ الى افكارهم[٢٣] وربما حاول ان يرصد كل غريب وعجيب، خارج محيطه الاجتماعي من باب اضافة المتعة وتشويق القارئ المتابع للإخبار والمشاهدات غير المالوفة، ونقل مختلف الظواهر من البلاد البعيدة التي يجهلها كثير من الناس، وهذه عادة سار عليها العديد من الرحالة في تضمين كتاباتهم بكل ماهو غريب وخارق[٢٤]، اذ عادةً ما لجأ اصحاب الرحلات الى محاولة الكشف عن **"خبايا المجتمع وما ينطوي عليه من رزايا بالنقد والتنديد بها"**[٢٥] فتلك هي رغبة العامة التي تنجذب وتتهافت على من يكون مستهتراً بالغرائب[٢٦]، ولعل ذلك راجع بصورة اساسية الى اختلاف الثقافات بين تلك الشعوب التي تمارس عاداتها، اذ يعدها الأخر غريبة بصورة عفوية دون اكتراث او وعي بغرابتها.

كما يمكن القول ان الذي ساعد الرحالة العرب والمسلمين على كتابة وسرد الأساطير والخرافات، هو ذلك الرصيد الذي تركه لنا التراث العربي القديم والجاهلي، فضلاً عن الموروث الديني الذي احتوى العديد من كرامات، ومعجزات، وقصص الانبياء والرسل، وما فيها من امور يقف امامها العقل متحيراً، اضف الى ذلك الأثر الذي تركته ثقافات الامم الاخرى التي اصبحت قريبة جدا من المجتمع العربي خلال العصر العباسي .

فالرحالة يختلفون عن بعضهم في دقة الملاحظة ووجه الاهتمام والصدق والامانة، فضلا عن فهمهم للأمور مع تغير الظروف التي يواجهونها[٢٧]، واذا علمنا بأن الرحالة العرب والمسلمين قد ساهموا في دعم علم الجغرافية، مع ان البعض منهم هم جغرافيين بالفعل، اذ كان علم الجغرافية قديما يتبع المنهج الوصفي الادبي ويأخذ مادته من التاريخ

والادب والدين وعلم الاجتماع[٢٨] وبذلك مزج اصحاب الرحلات بين تلك العلوم والأساطير والخرافات حتى جاءت مادتهم على كل ممتع ومشوق[٢٩] .

لكن قلما نجد من بين الرحالة العرب والمسلمين المشارقة من استخدم الشعر او كان شاعراً باستثناء ابي دلف الينبوعي(عاش ق٤ه) الذي كتب الشعر، ومدح بعض الملوك والامراء اثناء رحلته[٣٠] اما بقية الرحالة فقد دونوا رحلاتهم نثراً خالي من الشعر، لان ذلك يعطي لهم الحرية في الوصف والتعبير عما في خياله دون تكلف، وبهذا اصبح النثر ضروري في وصف الرحلة، مع دوره كأداة تواصل مهمة بين الشعوب، تتمكن من خلاله ان تبين افكارها وتطلعاتها نحو الحياة[٣١]، لذا اصبح احياناً خيال الرحالة مسنوداً بالسرد الاسطوري والخرافي لكل ما هو بعيد عن حياة المتلقي، الذي يتناول ذلك الوصف والحديث بغرابته طوعاً، ثم تطلع الى اشباع رغبته ومخيلته بذلك[٣٢] وبهذا يكون هناك **"ثمة تواطؤ ثقافي يجد له في الجغرافية وادب الرحلة مكاناً خصباً"**[٣٣] . فالرحالة اثناء تجواله الطويل **"يتصيد من الخارج صوره وشخصياته، ثم يتآلفها ويمازجها مندساً الى خوافيها، مفيضاً عليها من شعاع نفسه تصح به نسبتها اليه"**[٣٤] ويبدو ان العديد منهم قد اطلعوا ملياً على كتابات من سبقهم من الجغرافيين والرحالة والقصاصين للحكايات النادرة، وتذوقوا الاحداث التي تناولها السابقين، فتبادر الى ذهنهم استدعاء ما في ذاكرته ليضعه ضمن مدونات رحلته ليكون اكثر قبولاً للمتلقي، فضلاً عن غرابة ماشاهده اثناء الرحلة .

<u>ثانياً: الرحالة والآخر</u> : لقد حاول الرحالة العرب والمسلمين المشارقة رسم صورة الآخر عن طريق رصد كل ما يلفت الانتباه والغرابة لدى المتلقي، سواء كان ذلك في العادات والتقاليد، او المعتقدات الدينية، او ما يحيط بالآخر من ظواهر طبيعية، او عمرانية، او اي ظاهرة تلفت نظر الرحالة، وتستدعي منه التساؤل والحيرة . لذا فأن وصف الآخر من الرحالة وطبيعة النظرة له ارتبطت **"بالاستشعار الباطني عن ثقافة الذات"**[٣٥] أي نظرة الرحالة الى ثقافة الآخر داخل أطار **"التزيين والتقبيح على اساس مفاضلة ثقافة الذات على الغير"**[٣٦] انطلاقاً من مقاييس حددها الرحالة نفسه مستنداً في ذلك الى الأيديولوجية الدينية والحضارية التي ولد فيها، فعلى سبيل المثال ان النظافة التي هي صفة المسلم المؤمن لا يجدها الرحالة ابن فضلان(عاش ق٤ه) عند الاتراك الذين وصل لهم واصفاً آياهم بأن احدهم **"لا ينزع الثوب الذي يلي جسده حتى ينتثر قطعاً"**[٣٧]، وكذا الحال عند عدم اغتسالهم من الغائط والبول[٣٨] فهو يشبههم **"كالحمير الضال لا يدينون لله بدين ولا يرجعون الى عقل ولا يعبدون شيئاً"**[٣٩]، وهو بذلك يحاول التركيز على كل شيء يجعل المتلقي حاضرا في ساحة الطبيعة البشرية المتوحشة **"عبر تصوير اقوام تكاد العتبة الفاصلة بينهم وبين البهيمية تمحى تماما"**[٤٠]، وهكذا فأن صورة الآخر عند الرحالة **"حاضرة حضوراً بارزاً سواء في وجوده الديني او بنائه الحضاري، اذ حاول الرحالة ان يصور لنا صور متعددة للآخر تلفها الكثير من الغرابة، وربما يرجع ذلك لإحساسه الكبير بالتفوق الحضاري والديني على هؤلاء"**[٤١] .

وقد شكل الآخر غير المسلم في ذهنية المسلمون **"شيئاً مذموماً لا يستاهل الا الوصف بارد الالفاظ ، خصوصاً اذا كانت لديه عادات وتقاليد تخالف ما تعود عليه الرحالة وألفوه"**[٤٢]، فالرحالة ابي دلف الينبوعي وصف لنا بعض ما وجده عند قبيلة الخرلخ[٤٣] بأن**"البغي والجور بينهم ظاهر، ويغير بعضهم على بعض..."**[٤٤]، وهكذا نلاحظ ان**"سمة المفاضلة تشكل جزئية هامة في بنية التفكير العربي الاسلامي في عصر الحضارة الاسلامية خاصةً، والتي انعكس اثرها على كتابات الرحالة المسلمين القدامى ونظرتهم الى ثقافة الغير"**[٤٥]، لكن عند مطالعتنا لكتاباتهم، وهم داخل حدود الدولة الاسلامية لم نجد ذلك الترفع والسمو كما هو تجاه الآخر خارج حدود دولتهم، بل نلمس بعض المقارنات الخجولة التي اشار لها الرحالة الى جمهوره في مسقط رأسه بقصد التشبيه والمماثلة والافهام ، فعلى سبيل المثال وصف

الرحالة ناصر خسرو العمائم والفوط التي تصنع من صوف الخراف في مدينة اسيوط المصرية ويصدر منها الى بلاد العجم بقوله :**"وقد رأيت في أسيوط فوّطة من صوف الغنم لم أر مثلها في لهاور او ملتان ، وهي من الرقة بحيث تحسبها حريراً"**(٤٦) . بينما نجد ان الاساطير والخرافات تأخذ مداها الواسع عندما يكون الرحالة خارج الاسوار الاسلامية، اذ يبدأ طغيان الحرية في التعبير، والوصف يندفع لديه كالسيل العرم حتى يتخطى حدود العقل والمنطق الى حد الاغراق دون ان يكون هناك نظام، ومزاج في الهام العقل، بل يسلك الرحالة انذاك طريق المبالغة سارحاً في اجواء التخيل مجافياً لمجرى الحقيقة حتى تصبح بعض كتاباته عند المتلقي ضرباً من الوهم والهواجس . فقد نقل ابي دلف عند وصوله الى قبيلة الخرخيز(٤٧) مانصه **"ولهم حجارة تسرج بالليل يستغنون بها عن المصابيح ، ولا تعمل في غير بلدهم"**(٤٨) وفي الصين **"ببلاد البشان المُعلَم وهو الكركدن ، له في مقدم جبهته قرن واحد وفي قرنه علامة صورة خلقة كصورة الانسان في حكايته ، القرن كله اسود والصورة بيضاء في وسطه...وربما كان في القرن صورة رجل وصورة طاووس وصورة سمكة وساير الصور..."**(٤٩)، وهكذا تكون صورة الآخر في عيون الرحالة ضبابية في بعض الاحيان تشوبها الغرابة حيناً، وتتبلد في بواطنها الحقيقة حيناً آخر، وما بين الاثنين تبقى ثقافة الآخر أقل منزلة من تصورات الرحالة .

ثالثاً : كتب الخرافات والعجائب والغرائب : وهي الكتب التي مُلأت صفحاتها بأنواع كثيرة من الفنون، ودونت كل ما هو غريب وعجيب واسطوري وخرافي، وضمت موضوعات في الطرافة والتسلية والالغاز والسحر وخوارق العادات وعجائب المخلوقات، وهي بذلك لا تخلوا من قيمة علمية وتاريخية وأدبية فرضت مكانتها الخاصة بين القراء خلال العصر العباسي، واحتلت مكاناً واسعاً في رفوف الوراقين . وقد ازداد تأليف هذه الكتب نتيجة الاستقرار السياسي، وتوسع الدولة العربية الاسلامية، اذ اصبحت الاقاليم البعيدة في داخل دار الاسلام، وخارجها تستهوي الرحالة والتجار والكتاب **"فسالت اقلامهم بالقصص الواقعية، وشبه الواقعية، والخيالية، وشبه الخيالية، فكانت حصيلة كل ذلك هذه الاخبار الكثيرة موهومة، او غير موهومة مما وضعوه في كتبهم عن عجائب البلدان"**(٥٠)، التي احتوت الاساطير والخرافات والقصص والفولكلور فضلاً عن المعلومات التاريخية والجغرافية والعلمية(٥١) كما يدخل ضمن هذه الكتب تلك المتعلقة **"بالملاحم، والفتن، والحروب، واخبار الحيوان والملائكة، والجن والشياطين، واحوال الخلق ووصف اللآخرة، فضلاً عن كتب الرحلات والجغرافيا والحكايات، وكتب السير الشعبية وكرامات الصوفية"**(٥٢) .

فقد اقتحمت هذه الكتب بالعجائب التي لا تخلو من الخرافات المنقولة من افواه البحارة، وبعضها وضعها المؤلفون زيادةً ورغبة منهم في جذب العامة لمطالعة كتبهم(٥٣) اذ كثير ما بالغ اصحاب تلك الكتب عن مشاهداتهم للجزر الحقيقية المعروفة اليوم، بل وضعوا بجانبها جزائر وهمية، او ان حقيقة وجود بعضها لم تلاحظ الحياة عليها بصورة دقيقة، فكثرت الاخبار المنسوجة فيها بالاساطير والخرافات بصورة مسرفة(٥٤) . فمن تلك الخرافات التي احتوتها كتب العجائب **"جزر الواق واق في بحر الصين ... قالوا انها الف وستمائة جزيرة ، وانما سميت بهذا الاسم لان بها شجرة يسمع من يمر بها صوته كأنه يقول واق واق "**(٥٥) فجهل المكان وبعده عن الرحالة والمتلقي معاً جعله مسرحا لعرض العجيب والغريب اذ **"يظهر ان بعض ملاحي العرب نزلوا اليابان وهم يسمونها جزر الواق واق، وما قصوه عنها يدل على انهم لم يعرفوها معرفة صحيحة، ويغلب على ما حكوه الاسطورة والخرافة، بل انه ليتحول الى خرافة خالصة"**(٥٦) .

كما ان اغلب الكتب التي تصف بحر الهند والبحار الاخرى، تكاد لا تخلو من سر الاساطير والعجائب والخرافات اثناء وصفه، ولعل رحلة سليمان التاجر سنة (٢٣٧هـ/٨٥١م) التي قطعها من البصرة الى الصين، قد فسح فيها

المجال كثيراً لخياله في الوصف[٥٧] منها ما ذكره عن جزائر اسمها لنجبالوس **"وفيها خلق كثير عراة، الرجال منهم والنساء غير ان على عورة النساء ورقاً من ورق الشجر..."**[٥٨]، اذ انعكست تلك الكتابات التي حملت اخبار من الاساطير والخرافات على باقي الرحالة من ابن خرداذبة(ت٣٠٠ه/٩١٣م) وحتى ابن بطوطة(ت٧٧٩ه/١٢٦٣م) وما بعده، اذ حوت كتب رحلاتهم **"سيول من الاسطورة والخرافة يتخللها كثير من الحقائق، وكأنما كان القوم يجدون فيها ما يشوق الناس الى قراءة كتبهم فتوسعوا فيها، وجمعوا كثيراً من غرائبها"**[٥٩] .

ونظراً لصفة المتعة والتسلية والترفيه التي اضافتها تلك الكتب الى مزاج القارئ انذاك[٦٠]، فقد انفردت كتب خاصة بتلك المواضيع حملت موضوعات الخرافات والعجائب والغرائب، اذ اشار ابن النديم (ت٤٣٨ه/١٠٤٧م) ان تلك الكتب كان **"مرغوباً بها مشتهاة في أيام خلفاء بني العباس"**[٦١]، وقد لاقت كتب العجائب رواجاً كبيراً لدى القراء لها في اقاليم الدولة الاسلامية[٦٢] وهي في **"احسن انواعها لا تعد ان تكون كتباً وصفية للبلدان واهلها ومسالكها وحيواناتها ونباتاتها وتربتها...لكنها تحمل طابع الكتب التي ألفت لجمهرة القراء، يغلب عليها في أسوأ انواعها التهريف والخرافة"**[٦٣] بيد ان مؤلفيها لم يكن قصدهم جمع الخرافات بل تدوين كل ما هو غريب حسب فهم وعلم الكاتب للغرائب[٦٤]، وربما تعتمد تلك الكتابة على ثقافة المؤلف، وطريقة ايراده للرواية، ودرجة النظر اليها بموضوعية، او يكون متأثراً بالرغبة في اثارة العامة بما يكتب مما **"يساعد بينه وبين توخي الواقع او توخي المغالاة"**[٦٥]؛ فالمزج الذي احتوته تلك الكتب ما بين **"الحقائق الثابتة والنظريات المغلوطة وأراجيف الناس لم يكن قاصراً على الكتب العربية وحدها...بل احتوته كتب لغات الشرق الاخرى...التي كانت مرجع العرب في نهضتهم...فهي تتحمل الكثير من التخريف"**[٦٦] .

وقد كان القرن الثالث الرابع وما بعده الفترة التي شهدت ولع الناس بهذه الكتب، اذ اشار البلخي(٥٠٧ه) لذلك بقوله **"كان الحديث لهم عن جمل طار اشهى اليهم من جمل سار ورؤيا مرُية آثر عندهم من رواية مروية"**[٦٧] وقد كان للوراقين دوراً في التصنيف والتكذيب، وعمل الاسمار والخرافات على ألسنة الحيوان وغيره[٦٨] مما يدل على درجة قبولها بين العامة، وانتشارها بشكل واسع[٦٩]، اذ اشار ابن النديم ان اوائل الذين ألفوا في العجائب، والأسمار هشام الكلبي(ت٢٠٦ه/٨٢١م)[٧٠] له كتاب العجائب الاربعة، وكتاب الفتيان الاربعة، وكتاب السمر، وكتاب عجائب البحر وغيرها[٧١]، ثم تكاثرت الكتب التي حملت عناوين العجائب والغرائب خلال العصر العباسي(١٣٢-٦٥٦ه)، وما بعده ضمت بين صفحاتها خرافات واساطير متنوعة، ربما لا تخلو من حقيقة نسبية[٧٢] كما كثر الوراقين الذين صحفوا، ولحنوا، وصنفوا امتثالاً لرغبة العامة في مطالعة تلك الكتب[٧٣]، ولا شك ان الرحالة لم يكونوا بعيدين عن الزمان والمكان الذي كثرت فيه مؤلفات العجائب وما احتوته من خرافات واساطير كانت محط انظار، ومتعة المتلقي مما زادهم تأثراً بلغة العصر واللحاق بالسرب الاسطوري والخرافي .

الاستنتاجات

- اختلاف كتابات الرحالة باختلاف الاماكن التي زاروها، اذ كلما كانت البلاد التي وصلها بعيدة عن دار الاسلام، كلما تفاعل معها، والتفت الى كل ما يصادفه من صور اسطورية وخرافية لتكون مادة دسمة في كتاباته .

- كانت لتوجهات الرحالة الثقافية اثرها في توجيهه ونقل كل ما يجده مناسباً لجمهوره مضيفا له انطباعاته ورؤيته الشخصية، وربما نجده يبين تفسيره، وموقفه الواضح من تلك الاسطورة او الخرافة .

- تبين ان اغلب الرحالة كانوا قد أطلعوا ملياً على كتابات من سبقهم من الرحالة والجغرافيين والقصاصين للحكايات النادرة، وتذوقوا الاحداث التي تناولها السابقين، فتبادر الى ذهنهم استدعاء ما في ذاكرتهم ليضعوه ضمن مدونات رحلتهم ليكون اكثر قبولاً للمتلقي يضاف له ما شاهده اثناء الرحلة .

- كثيرا ما تكون صورة الآخر في عيون الرحالة العرب والمسلمين ضبابية في بعض الاحيان تشوبها الغرابة حيناً، وتتبلد في بواطنها الحقيقة احياناً اخرى، وما بين الاثنين تبقى ثقافة الآخر أقل منزلة من تصورات الرحالة .

- كان لكتب العجائب والغرائب التي كثرت خلال العصر العباسي، ولاقت رواجاً واسعاً لدى القراء، اثرها الواضح في رغبة الرحالة العرب والمسلمين المشارقة الى تضمين كتاباتهم ومذكراتهم بعض الاساطير والخرافات .

هوامش البحث

(١) زردومي ، اسماعيل ، فن الرحلة في الادب المغربي القديم، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمه الى كلية الاداب والعلوم الانسانية، جامعة الحاج الاخضر الجزائرية، سنة ٢٠٠٥م ، ص ١٢ .

(٢) ينظر : الخطيب البغدادي،، ابو بكر احمد بن علي بت ثابت (ت٤٦٣ه)، الرحلة في طلب الحديث، تحقيق نور الدين عتر، ط١، دار الكتب العلمية(بيروت ١٩٧٥م)، ص٢٦ ؛ النساج، سيد حامد، مشوار كتب الرحلة، دار غريب للطباعة (القاهرة د.ت)، ص١٠ ؛ احمد، أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي (جدة د.ت)،ص٨ ؛ ضيف، شوقي، الرحلات، ط٤، دار المعارف (القاهرة ١٩٥٦م)، ص٩ .

(٣) ابو السعود ، الخرافة في الادبين العربي والانكليزي ، مجلة الرسالة المصرية ، العدد ١٧٤ ، لسنة ١٩٣٦ ، ص١٧٩٢ .

(٤) المرجع نفسه ، ص١٧٩١ .

(٥) كراتشوفسكي ،اغناطيوس ، تاريخ الادب الجغرافي ، ترجمة صلاح الدين عثمان ، ط٢ ، دار الغرب الاسلامي (تونس ١٩٨٧م) ، ج١ / ص٦٩ .

(٦) المرجع نفسه ، ج١ / ص٥٢ .

(٧) الشهابي، مصطفى، الجغرافيون العرب، دار المعارف (القاهرة ١٩٦٢م) ، ص١٣ .

(٨) ينظر : زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني (بيروت ١٩٨٧م)، ص١٧-٢١.

(٩) الجغرافيون والرحالة المسلمون، الجمعية الجغرافية الكويتية، (الكويت ١٩٨٠م) ، ص٥ .

(١٠) المرجع نفسه ، ص٧ .

(١١) محمدين، محمد محمود،، التراث الجغرافي الاسلامي، ط٣، دار العلوم (الرياض ١٩٩٩م)، ص٣٩٨ .

(١٢) المرجع نفسه والصفحة .

(١٣) بطي، عبيد علي، ندوة كتابات الرحالة المبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور، مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث (دبي ١٩٩٦م) ، ص٦٧ .

(١٤) حسيني، الطاهر، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بناءها الفني انواعها وخصائصها، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة قاصدي مرباح (الجزائر ٢٠١٤م) ، ص٣٩ .

(١٥) بادشاه، حافظ محمد، الحجاز في ادب الرحلة العربي، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الدراسات والبحوث المتقدمة ، الجامعة الوطنية للغات الحديثة (اسلام آباد ٢٠١٣م) ، ص٣٥ .

(١٦) الشامي، صلاح الدين علي، الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ط٢، منشأة المعارف (الاسكندرية ١٩٩٩م)، ص١٥١-١٥٢ .

(١٧) المرجع نفسه ، ص١٤٦ .

(١٨) المرجع نفسه ، ص١٤٧ .

(١٩) المرجع نفسه ، ص١٤٩ .

(٢٠) خسرو، ناصر(ت٤٨١ه)، سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، ط٢، الهيئة العامة المصرية للكتاب(القاهرة ١٩٩٣م) ، ص٩٥ .

(٢١) نوري ، الروايات التاريخية ، مجلة ابحاث كلية التربية الاساسية ، المجلد ١١ ، العدد ١ ، لسنة ٢٠١١ ، ص٢٥٣ .

(٢٢) الخامسة، علاوي ، العجائبي في ادب الرحلات رحلة ابن جبير نموذجا ن رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية اللغات والاداب ، جامعة منتوري – قسنطينة (الجزائر ٢٠٠٥م) ، ص١٧٣ .

(٢٣) حسين ، حسني محمود ، ادب الرحلة عند العرب ، ط٢ ، دار الاندلس (بيروت ١٩٨٣م) ، ص٨ .

(٢٤) عسيري ، مقدمة تحقيق الرسالة الاولى لابي دلف ، ص١٩-٢٠ .

(٢٥) بن عرفة ، الملحمة الخرافة الرواية، مجلة كتابات معاصرة ، العدد٣٢، لسنة ١٩٩٨، ص١١٩ .

(٢٦) الرافعي، تاريخ اداب العرب، ص٢٩٨ .

(٢٧) المرجع نفسه، ص٦ .

(٢٨) المرجع نفسه والصفحة

(٢٩) المرجع نفسه ، ص٧-٨ .

(٣٠) عسيري، مريزن سعيد مريزن، مقدمة تحقيق الرسالة الاولى لابي دلف مسعر بن مهلهل الخزرجي (عاش ق٤)، مكتبة الملك فهد الوطنية ، جامعة ام القى (السعودية ١٩٩٥م) ، ص١٠ .

(٣١) الموافي ، ناصر عبد الرزاق ، الرحلة في الادب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، ط١ ، دار النشر للجامعات المصرية (القاهرة ١٩٩٥م) ، ص٤١ .

(٣٢) لعيبي ، مقدمة لرحلتي ابي دلف ، مجلة الكوفة ، العدد ٣، لسنة ٢٠١٣ ، ص٤٥ .

(٣٣) المرجع نفسه والصفحة .

(٣٤) تيمور ، محمود ، فن القصص ، مطبعة دار الهلال ، ط٢ ن (مصر ١٩٤٨م) ، ص٩٧ .

(٣٥) فهيم ، حسين محمد ، ادب الرحلات ، عالم المعرفة (الكويت ١٩٩٠م) ، ص١٢٦ .

(٣٦) المرجع نفسه ، ص١٣٣ .

(٣٧) ابن فضلان، احمد بن العباس بن راشد بن حماد (عاش ق٤ ه) ، الرسالة ، تحقيق شاكر لعيبي، ط١ ، دار السويدي (ابو ظبي ٢٠٠٣م) ، ص٦٩ .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص٦٢ .

(٣٩) المصدر نفسه والصفحة .

(٤٠) اليوسفي ، محمد لطفي ، حركة المسافر وطاقة الخيال دراسة في المدهش والعجيب والغريب ، بحث منشور ضمن اعمال ندوة الرحالة العرب والمسلمون أكتشاف الاخر المغرب منطلقا وموئلا ، وزارة الثقافة المغربية (الدار البيضاء ٢٠٠٣م) ، ص ٢٨٩ .

(٤١) الخامسة ، العجائبي في ادب الرحلات ، ص١٧١ .

(٤٢) فهيم ، ادب الرحلات ، ص١٧٧ .

(٤٣) قبائل تركية تنتمي الى قبائل الاتراك القراخانيون، وتنتشر في نواحي سمرقند، وهم عتاق الترك، للتفاصيل ينظر:(الهمذاني، البلدان، ص٦٣٤).

(٤٤) الرسالة الاولى ، ص٤٨ .

(٤٥) فهيم ، ادب الرحلات ، ص١٧٧ .

(٤٦) سفرنامة ، ص١٣١ .

(٤٧) قبائل تركية سكنة عدد كبير منها في اعالي نهر ينسي في منغوليا احترفوا الزراعة، وظهروا سياسيا فيالقرن الثالث الهجري / القرن التاسع الميلادي، ثم خضعوا للمغول في سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) ، ينظر: الجويني، علاء الدين عطا الملك(ت٦٨١هـ) تاريخ جهانكشاي (تاريخ فاتح العالم) ترجمة محمد التونجي، دار الملاح (القاهرة ١٩٨٥م)، ج١/ص٨ .

(٤٨) الرسالة الاولى ، ص ٤٧-٤٨ .

(٤٩) سليمان التاجر(عاش ق٣ه) ، عجائب الدنيا وقياس البلدان، ألفه سن ٢٣٧ه ، تحقيق سيف شاهين المريخي ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، ط١ ، (العين ٢٠٠٥م) ، ص٤٧ .

(٥٠) علوان ، محمد باقر ، في الادب العربي ، كتب عجائب المخلوقات ، مجلة المورد ، مجلد٣ ، العدد٢ ، درا الحرية للطباعة (بغداد ١٩٧٤) ، ص٢٣٥ .

(٥١) المرجع نفسه والصفحة .

(٥٢) التوزاني، خالد، ظاهرة كتب العجائب والغرائب في التراث العربي الاسلامي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد ٩١ ، مركز الماجد للثقافة والتراث (دبي ٢٠١٥م) ، ص١٢٠ .

(٥٣) ضيف، شوقي، عجائب واساطير، دار الهلال ، (دزم ٢٠٠٤م) ، ص٢٨ .

(٥٤) المرجع نفسه والصفحة .

(٥٥) القزويني ، زكريا بن محمود الكوفي (ت٥٨٢ه) ، عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، ط١ ، (بيروت ٢٠٠٠م) ، ص١٠٣ .

(٥٦) ضيف ، عجائب واساطير ، ص ٢٩ .

(٥٧) المرجع نفسه ، ص٢٤ .

(٥٨) سليمان التاجر ، عجائب الدنيا ، ص٣٣ .

(٥٩) ضيف، عجائب واساطير، ص ٢٥ .

(٦٠) المرجع نفسه والصفحة .

(٦١) ابن النديم، ابو الفرج محمد بن يعقوب الوراق(ت٤٣٨ه)، الفهرست، تحقيق رضا تجدد (مصر د.ت)، ص٣٦٧ .

(٦٢) فوزي، حسين، حديث السندباد القديم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر(القاهرة ١٩٤٣م)، ص٣٤ .

(٦٣) المرجع نفسه والصفحة .

(٦٤) المرجع فسه والصفحة .

(٦٥) المرجع نفسه، ص٣٥ .

(٦٦) المرجع نفسه، ص٣٦ .

(٦٧) البلخي، ابي زيد احمد بن سهل(ت٥٠٧ه)، البدء والتاريخ، مطبعة شهر يارس(د.م ١٨٩٩م)، ج١/ص٤ .

(٦٨) ابن النديم، الفهرست، ص٣٦٧ .

(٦٩) ابراهيم ، عبد الله ، النثر العربي القديم بحث في البنية السردية ، ط١ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث (الدوحة ٢٠٠٢م) ، ص٦٨ .

(٧٠) هشام بن محمد بن السائب بن بشر أبو المنذر الكلبي من أهل الكوفة ، قدم بغداد ، وحدث بها ، صاحب نسب وسمر ، وما ظننت أن أحدا حدث عنه، روى العجائب والاخبار التي لا أصول لها ، أخباره في الأغلوطات أشهر من أن يحتاج إلى الاغراق في وصفها الغالب عليه الاخبار والأسمار والنسبة حدث عن أبيه . روى عنه ابنه العباس ، و خليفة بن خياط ، و شباب العصفري ومحمد بن سعد كاتب الواقدي ، ومحمد بن أبي السري وأبو الأشعث أحمد بن المقدام ، وغيرهم ، مات في سنة ٢٠٤ه وقيل ٢٠٦ه (ابن حبان ، ابي حاتم محمد بن حبان التميمي (ت ٣٥٤ه) ، المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين ، تحقيق محمود ابراهيم زايد ، دار الباز (مكة المكرمة د.ت) ، ج٣ / ص٩١ ؛ الجرجاني ، ابي احمد عبد الله بن عدي (ت٣٦٥ه) ، الكامل في ضعفاء الرجال ، تحقيق سهيل زكار ، ط٣ ، دار الفكر (بيروت ١٩٩٨م) ، ج٧ / ص١١٠ ؛ الخطيب البغدادي ، ابي بكر احمد بن علي (ت٤٦٣ه)، تاريخ بغداد او مدينة السلام، ط١، دار الكتب العلمية(بيرت ١٩٩م)، ج١٤/ص٤٥) .

(٧١) ينظر : الفهرست ، ص١٠٨-١١٠ .

(٧٢) ينظر:ابن النديم، الفهرس، ص٣٦٤،١٦٩،١٦٣،١٦٤،٣٦٧،١٣٤،٣٧٦-٣٦٥ ؛ النجاشي ، ابو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس الأسدي الكوفي (ت٤٥٠ه) ، الرجا ، ط٥، مؤسسة النشر الاسلامي (قم ١٤١٦ه)، ص٩٦ ؛ حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت١٠٦٧ه)، كشف الظنون ن أسامي الكتب والفنون، تحقيق محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلگه الكليسي، دار احياء التراث العرب، (بيروت د.ت) ، ج٢/ص١١٢٦، ج١/ص١٥-١٦، ج١/ص٣٦٩ ؛ البغدادي، سماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم البابانى(ت١٣٣٩ه)، ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلگه الكليسي، دار احياء التراث العربي (بيروت د.ت)، ج٢/ص٩٣-٩٤ ؛ البغدادي، إسماعيل باشا (ت١٣٣٩ه)، هدية العارفين أسماء المؤلفين واثار المصنفين، دار احياء التراث العربي (بيروت د.ت) ، ج١/ص٧٠٦ ؛ فوزي، حديث السندباد القديم، ص٣٣-٤٢ ؛ عواد ، ميخائيل ، الف ليلة وليلة مرآة الحضارة والمجتمع في العصر العباسي ، سلسلة الثقافة الشعبية ، (بغداد د.ت) ، ص٩-١٢ ؛ علوان ، كتب عجائب المخلوقات ، مجلة المورد ، العدد ٢ ، لسنة ١٩٧٤ ، ص٢٣٥-٢٤١ ؛ التوزاني ، ظاهرة كتب العجائب والغرائب ، مجلة آفاق الثقافة ، العدد ٩١ ، لسنة ٢٠١٥ ، ص١١٨-١٢٦ .

(٧٣) ينظر : ابن النديم ، الفهرست ، ص٣٦٧، ١٦٣-١٦٤، ٣٦٥ .